الأثر الديني في توجيه النقد الأدبي القديم

"النقد الأخلاقي عند العرب"

أ. سكينة قدور

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

مقدمة

مما لا شك فيه أن النواة الأولى للنقد الأدبي عند العرب تشكلت في المجالس والندوات الأدبية التي عرفتها أسواق الجاهلية مثل تلك اللقاءات التي كانت بين الشعراء في أفنية الملوك بالحيرة وغسان[1] وإن كانت عكاظ أشهر سوق أدبية عرفتها العرب فيها يلتقي الشعراء مرة كل عام وإن كان ما يدور من ملاحظات نقدية لا يعدو أن يكون أحكاما يسيرة بسيطة قائمة على الانفعال المباشر والتأثر الآني ملائمة لروح العصر، وقد ارتكزت جميعها على جوانب فنية محضة.

حتى إذا جاء الإسلام وأطر كل نواحي الحياة العربية الجديدة بما في ذلك الشعر، انطلاقا من قوله تعالى:" والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون."(23-27)

فالإسلام لم يحط من شأن الشعر كفن وإنما قدر خطره وأدرك دوره الخطير أيضا في المجتمع، فحاول أن يجعله من جنود دعوته دون أن يحجر عليه أو يرفض باقي اتجاهاته.

-توجيهات أخلاقية للشعر

كان للقرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومواقف بعض الخلفاء من هذا الفن الذي لم يكن للعرب فن غيره الأثر الواضح في ميلاد اتجاه نقدي لم يكن للعرب عهد به هو الاتجاه الأخلاقي الذي وقف جنبا إلى جنب والاتجاه الذي كان سائدا آنذاك.

وسنقف في هذه العجالة عند بعض تلك الملاحظات التي أسست لذلك الاتجاه النقدي الجديد لشخصيات عربية إسلامية كان لها الأثر الفعال في توجيه حركة الشعر أولا ثم حركة النقد التي انبثقت عنه ثانيا، بما تملكه من سلطان ديني روحي آنذاك إلى جانب السلطان السياسي.

ويأتي المصطفى ρ وهو القدوة والمعلم في مقدمة الموجهين لحياة المسلم في شتى مناحيها بسلوكه اليومي وبالوحي الذي يتنزل عليه وبما كان يرسله في الناس من أحاديث موجهة لهم في أمور دينهم ودنياهم، فقد كان يستمع إلى الشعر ويستنشد بعض جلسائه الشعر، ويهب بردته لكعب صاحب " بانت سعاد "، ويدعو حسانا إلى الرد على المشركين ويرى أن شعره أشد وقعا عليهم من وقع النبل، وهي مواقف كلها تدل على جلال قدر الشعر عنده ρ لذلك لم يأل جهدا في توجيهه الوجهة الصحيحة التي تخدم الدين. فهو يدعو إلى الارتفاع بالشعر ويحث على تجنب الخبيث من القول، ويجعل الحسن منه ما وافق الحق، وما لم يوافقه لا خير فيه. ويرى أن راوي الشعر المقذع شاتما شأنه شأن الشاعر الذي روى عنه، ذلك لأن الشعر عنده أداة من أدوات التغيير الفعال والبناء في المجتمع به يعطي السائل وبه يكظم الغيظ وبه يبلغ القوم، يقول:" إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق فلا

خير فيه"[2]. وقال : "إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب"[3]. وكأنه يضع الشعراء في هذا النص المفتوح أمام خيارين بل ويدعو دعوة صريحة إلى ذلك فيقول:" الشعر كلام فيه حسن وقبيح فخذ الحسن ودع القبيح". ويقول: " من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر"، وقال: " من روى في الإسلام شعرا مقذعا فهو أحد الشاتمين"[4]

و كأننا به في هذه الأحاديث يرفض الهجاء لما يحدثه من أثر سلبي في النفوس وما يفعله آنذاك في المجتمع العربي ذي النوازع القبلية والشعور الجمعي المتضخم، ليقف بنا في الأخير عند بعض أبواب الخير التي يمكن أن يلجها الشعراء " الشعر جزل من كلام العرب يعطى به السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يبلغ القوم في ناديهم"[5]

فالشعر عنده ρ وسيلة من وسائل تمجيد تعاليم الدين وإرسائها، ولعل أهم تلك التعاليم مكارم الأخلاق.

ومضى الصحابة على نهجه ρ وواصلوا رسالته، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "علموا أبناءكم العوم والرماية .... وروّوهم ما يجمل من الشعر .... لأنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب " وفي رواية أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري : " مر من قبلك بتعلم الشعر. فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب" [6]. وقال يحيى ابن عباس لما سأله عن سبب تقديمه زهيرا وعده أشعر العرب جامعا بين جمال الأداء وسمو الغاية: " كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه".[7]

وتصدى للغزل الفاحش فقال لما سمع عبد بني الحسحاس ينشد مصورا ما وقع له مع إحداهن :

- توسدني كفا وتثني بمعصم علي وتحوى رجلها من ورائيا.
- ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرق على جنب الفراش وطيب.

"ويلك إنك لمقتول".[8]

كما تصدى للهجاء، وقصته مع الحطيئة في هجاء الزبرقان معروفة، فقد استدعى حسان بن ثابت وحكمه في الأمر فأجابه: "لم يهجه ولكن سلح عليه ".[9]

وكان ذلك سببا في حبسه الحطيئة، محاولة منه لكف لسانه عن الناس.[10]

وهكذا نراه يساهم في ترسيخ الرؤية الأخلاقية للفن وإدخاله دائرة الإلتزام والمسؤولية ومراقبة الضمير.

حتى إذا جاء العصر الأموي عادت الفنون الأدبية الجاهلية إلى الظهور من مفاخرات ومناظرات وفخر كاذب ومديح مبالغ فيه، وعرفت الرؤية الأخلاقية للشعر حالات من المد والجزر.

ومن الذين أدركوا أثر الشعر وقدرته السحرية في التغيير معاوية بن أبي سفيان الذي يقول معاتبا ابنه يزيدا لتقصيره في تعليم ابنه الشعر : "ما منعك أن ترويه الشعر؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل"[11]

ونهى عبد الرحمان بن الحكم عن الغزل لما يحدثه من فساد في نفس المشبب بها وإن كانت شريفة قوم عفيفة نفس، ونهاه عن الهجاء الذي يفقده صداقة كريم أو يثير عليه طيش لئيم لا تحمد عواقب ثورته، ونهاه عن المديح لما يلحقه بصاحبه من ذل السؤال، ليترك له مجالات أخرى لا تؤذي أحدا منها الفخر بمآثر قومه والأمثال والحكم التي تتزين بها نفس الشاعر ويؤدب بها غيره : : " يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فإنك تغر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها ... وإياك والهجاء فإنك لا تعدوا أن تعادي كريما أو تستثير به لئيما، وإياك والمديح فإنه طعمة الوقاح في تفحش السؤال ... ولكن افخر بمآثر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك.[12]

وقد أبى عمر بن عبد العزيز استقبال الشاعر عمر بن أبي ربيعة لما جاءه مهنئا بالخلافة وكذلك رفض استقبال الفرزدق وقال : " لا يطأ والله بساطي" واستشهد لكل منهما بما لا يحمد من شعرهما (الغزل).

أما ناقد الحجاز ابن أبي عتيق فلم يجعل من الدين والأخلاق معيارا لتقييم الشعر أو رفع قدر شاعر أو خفضه فكان عمر بن أبي ربيعة من أشد المقربين إليه، وكان شديد الإعجاب بشعره وكثيرا ما وجه له أحكاما نقدية جمالية[13] دون أن ينكر عليه شيئا أو ينهاه عن شيء وإن صرح أو اقر بعصيانه في شعره "لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عصى الله عز و جل بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة".[14]

وفي مقابله نجد هشام بن عروة ينبه إلى خطورة شعر عمر بن ربيعة فيقول: "لا تروا فتياتكم شعر ابن أبي ربيعة ليتورطن في الزنا تورطا".[15]

وقد عرفت الساحة الأدبية تحررا كبيرا وتمردا لكثير من الشعراء على القيم الخلقية وكذا بعض فئات المجتمع العربي ، فكان سعي الشعراء وحرص النقاد واضحا في تحقيق المتعة الفنية الخالصة بعيدا عن الخيرية، ولن نكون مغالين إذ اعتبرنا هذه النزعة هي الغالبة على أدب العصر الأموي ويكفي دليلا على ذلك ما دار حول فن النقائض على ما فيه من إقذاع وسباب وإفحاش.

فإذا جئنا إلى العصر العباسي وجدنا من توجيه الخلفاء والأمراء والوزراء للشعر الكثير، ويكفي إلقاء إطلالة بسيطة على مواقف بعض الخلفاء من هذا الفن. نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر موقف الخليفة العباسي من المقدمات الخمرية التي روج لها أبو نواس وشعراء كثر، فقد دعاه إلى تجنب مثل هذه المقدمات والإستهلال بالمقدمة التقليدية المعروفة وقد استجاب أبو نواس مكرها يقول:

اعر شعرك الأطلال والدمن القفرا فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرا

دعاني إلى وصف الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعـــة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا.[15]

الإتجاه الأخلاقي في النقد الادبي (من القرن3هـ-الى7هـ) :

إن المتأمل للحركة النقدية الأدبية من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري بالنظر الى المعيارين البارزين المتلازمين الفن والأخلاق يلاحظ وجود ثلاثة اتجاهـات نقدية بارزة، اتجاه يرى أن الدين والأخلاق لا يجب أن يكونا مقياسا علـى شـاعرية شاعر كما أن الكفر لا يكون مقياسا لخموله ويمثل هذا الإتجاه كل من ابـن سـلام الجمعي، وابن المعتز وقدامة بن جعفر، وأبي بكـر الصـولى والقاضـي الجرجـاني، والثعالبي...[16]

واتجاه حرص على الجمع بين القيمتين الجمالية والخلقية وان اختلفت عندهم التطبيقات العلمية وهم قلة مثل الاصمعي الذي كان يحرص في تنظيره علـى المعـايير الفنية البحتة ويحرص في منهجه التطبيقي ألا يروي ما خالف الدين، لم يرو شـعرا في الأنواء لقوله صلى الله عليه وسلم إذا ذكرت النجوم فأمسكوا و لم ينشد شـعرا فيـه هجاء.[17]

واتجاه لم يقبل من الشعر إلا ما اتفق وروح الإسلام وأنزله فنيا إذا خرج عن ذلك ويمثل هذا الإتجاه عدد من النقاد سنأتي على ذكر مواقفهم تبعا للتسلسل الـزمني التاريخي.

من أوائل النقاد الذين التفتوا إلى أهمية المعنى وشرفه وصوابه أو ما عبر عنـه المصطفى ρ بموافقته للحق بشر بن المعتمر (ت 20 هـ) في نصيحته الثمينة لكل من رغب في تجشم عوالم الإبداع "من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حـق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنـهما[18] ويرى بشر بن المعتمر أن المعنى لا يكتسب شرفا بانتمائه لمعاني الخاصة كمـا أنـه لا يتضع لكونه من معاني العامة، وإنما مدار الشرف هو قصد المعنى الصواب والحق والخير وما يحققه من منفعة و ما يعبر عنه من قضايا :

"والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك لا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال[19]

وللجاحظ مواقف وأحكام نقدية تقوم على أسس أخلاقية، جاءت متفرقة في ثنايا كتبه، منها إشارته إلى قضية الصدق وصلتها بالشعر، إذ يجعل على سبيل المثال الصدق معيارا لحسن الشعر و الكذب معيارا لقبحه، فيقول :" ... ما كان منه صادقا فحسن وما كان منه كاذبا فقبيح "[20]

ومثلما رفض الجاحظ الكذب أنكر على المادح الإفراط والمبالغة : « وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح، وأبقاها أثرا وأحسنها ذكرا أن يكون المدح صدقا وللظاهر من حال الممدوح موافقا وبه لائقا ... وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوئ ... فهذا لا يعرف، قال خريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألوانا علي خطوبها
إذا عبت منه خلة فتركته دعتني إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذ أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه.[21]

ولعلنا من خلال هذه الشواهد التي أوردها الجاحظ ندرك البعد التربوي والأخلاقي الذي كان يرمي إليه وهو مشاركة الشعر ومساهمته في الارتفاع بالنفوس ولنا أن نختم مواقفه النقدية بهذه النصيحة الثمينة التي تنم عن عارف بخبايا النفوس خبير بأغوارها وبمواقع الكلام حسنه و قبيحه منها، فهو إذ ينهى عن قبيحه وإذ ينبذ كاذبه وإذ يدعو إلى شريفه إنما لعلمه بما للساقط منه من علوق بالنفوس وتأثير في المتلقين :

«... ثم أعلموا أن المعنى الحقير الفاسد والدنيء الساقط يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ فإذا ضرب بجرانه ومكن لعروقه استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرّخ فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه ... اللفظ الهجين الرديء والمستكره الغبيّ أعلق باللّسان وآلف للسمع وأشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم) [22] . فهو هنا وإن ركز على الجانب الأخلاقي لا يهمل الجانب الفني وضرورة الالتفات إليه (اللفظ الهجين واللفظ النبيه).

ويرى ابن قتيبة (ت 276 هـ) أن الشعر الجيّد ما احتوى على فائدة ، ولا تخرج الفائدة عنده عن المعنى الأخلاقي أو الديني أو الحكمي ، فهو يقسم الشعر إلى أربعة أنواع أعلاه ما حسن لفظه وجاد معناها ، مثل :

في كفّه خيزران ريحه عبق من كفّ أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلاّ حين يبتسم

وقال في التعليق عليه : " لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه" ويقول أوس بن حجر

أيتها النفس لجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وعلق عليه بقوله : " لم يبتدئ أجد مرثية بأحسن من هذا" ويقول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وفيه يقول :" حدثني الرياشي عن الأصمعي قال هذا أبدع بيت قالته العرب"[23]

ولنا أن نتأمل أبيات القسم الأول وما تحمله من قيم خلقية وشيم إنسانية رفيعة كالحياء والهيبة عن حب واحترام لا رهبة والسماحة والوداعة ، والصبر والقناعة وغير ذلك من الصفات لنعلم أن المعين الذي كان يصدر منه هو معين المثل والقيم الإسلامية ويكفي أنه كان عالما بالنحو واللغة والشعر وغريب القرآن و معانيه و الفقه وفيه قيل أديب الفقهاء و فقيه الأدباء وقد تميزت أحكامه النقدية بالصرامة بتأثير منصب القضاء الذي تقلده حينا من الدهر.

أما ابن طباطبا (322هـ) فيرى أن أفهام الناس تميل إلى ما اتصف من الكلام بالعدل والصواب...وتستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل " والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق والجائز المعروف المألوف، ويتشوف إليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له".[24]

وقد مهد لهذين الاتجاهين اللذين تنفر النفس من أحدهما وتقبل على الآخر بباب " المثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح والهجاء عليها " عارضا جل الصفات التي يمدح بها العربي ويذم لأضداده، وأغلبها ذات أبعاد أخلاقية كالسخاء والشجاعة والحلم والحزم والوفاء والعفاف والبر والعمل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكتم السر، ومن أضدادها التي أوردها : البخل والجبن والطيش والجهل والغدر والاغترار والفشل والفجور والعقوق والخيانة والحرص والمهانة والكذب والهلع وسوء الخلق والخور وقطيعة الرحم والنميمة والغفلة ..... يقول في التعليق على تلك الصفات :" ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حسنها وتزيد جلالة المتمسك بها كما أن لأضدادها أيضا حالات تزيد في الحط ممن وسم بشيء منها، ونسب إلى استشعار مذمومها، والتمسك بفاضحها"[25] وليس هناك وسيلة أنجع من الشعر في نشر محمودها وطي مذمومها.

وهذا ابن الانباري (توفي 328 هـ) يدعو في موقف صريح واضح إلى عدم رواية شعر أبي نواس أو تناقله لما يحدث في الملتقى من إثارة لجوانب ضعفه ،كتب إلى ابن المعتز فقال:"...جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانئ والشعر الذي قاله في المجون ...وإن لكل ساقطة لاقطة،وإن لكلام القوم رواة ،وكل مقول محمول ،فكان حق شعر هذا الخليع ألاّ يتلقاه الناس بألسنتهم ولا يدونوه لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى فيهيج الدواعي الدنيئة ،ويقوي الخواطر الرديئة ،والإنسان ضعيف...والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة منحدرة من رأس رابية إلى ما فيه

هلكتها .والحسن بن هانئ ومن سلك سبيله في الشعر كشفوا للناس عوارهم وهتكوا عندهم أسرارهم ،وأبدوا مساويهم ومخازيهم ،وحسنوا ركوب القبائح فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم ،وأن يستقبح ما استحسنوه ..[26]

*ومن الذين مثلوا هذا الاتجاه بقوة وصرامة "البقلاني "(403هـ) فقد وقف موقفا عنيدا متشددا مما جاء في معلقته امرئ القيس من شعر فاحش ،يقول معلقة على قوله: فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

الأول فيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره.

والثاني غاية في الفحش ونهاية في السخف ،وأي فائدة لذكره لعشيقته، كيف كان يركب هذه القبائح ،ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد ،إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ،ويوجب له المقت،وهو –لو صدق–لكان قبيحا،فكيف ويجوز أن يكون كاذبا ،ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا معنى حسن.[27]

وينفي ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة 463 هـ كل أنواع الشعر في معرض حديثه عن الاسس الهامة في تربية النشئ تربية قويمة ،فلا يبقى الا ما كان منه مواعظا أو حكما يقول :"وما من قال الشعر في الحكمة والزهد فقد أحسن وأجر واما من قال معا تبا لصديقه ومراسلا له ،ورائيا من مات من اخوانه بما ليس باطلا ومادحا لمن استحق الحمد بالحق ،فليس بائم ولا يكره منه ذلك .وأما من قال هاجيا لمسلم ومادحا بالكذب ومشببا بحرم المسلمين ،فهو فاسق ".[28]

*وتتجلى ملامح المنحى الاخلاقي عند ابن بسام 524هـ في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة في بداياته إذ يقرر إعفاء هذا الكتاب من الهجاء فيقول:

" حسنت كتابي هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء"[29]

ويقول في السميسر – وقد عرف بالهجاء " أوله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره صنت الكتاب عن ذكره"[30] ويقول في ولادة بنت

المستكفي " وكانت - زعموا - تقرض أبياتا من الشعر، وقد فرأت أشعارا منه في بعض التعاليق أضربت عن ذكره، وطويته بأسره، لأن أكثره هجاء ، وليس له عندي إعادة ولا إبداء، ولا من كتابي أرض ولا سماء."[31]

وقد قسم الهجاء إلى قسمين هجو الأشراف الذي لا يسف ولا يفحش وأورد له شواهد، وهجو الإقناع والإفحاش والإضحاك وأعرض عن شواهده، فيقول: " والهجاء ينقسم إلى قسمين .... هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سببا مقذعا ولا هجرا مستشيعا وهو طأطأ قديما من الأوائل وشل عرش القبائل، إنما هو توبيخ وتعيير وتقديم وتأخير ... والقسم الثاني وهو السبب الذي أحدثته جرير وطبقته، وكان يقول : إذا هجوتم فاضحكوا وهذا النوع لم يهدم قط بيتا، ولا عيرت به قبيلة، وهو الذي صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإن أبي منصور الثعالبي كتب منه في يتيمة الدهر ما وبقي عليه إثمه"[32]

و مثلما رفض الهجاء وجدناه يرفض الغلو والتطاول الذي يمس المقدسات يقول معلقا على أبيات السميسر:

ياليتنا لم نك من آدم أورطنا في شبه الأسر

إن كان قد أخرجه ذنبه فما لنا نشرك في الأمر

والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالتقليد ، ونادى بالحكمة من مكان بعيد، صرح عن ضيق بصيرته ، ونشر مطوي سريرته ، في غير معنى بعيد، و لا لفظ مطبوع ، لعله أراد أن يتبع أبا العلاء ، فيما كان ينظمه من سخيف الآراء ، وهبه ساواه في قصر باعه وضيق ذراعه ، أين هو حسن إبداعه ولطف إختراعه"[33]

*أما آخر فرسان هذا الإتجاه في النقد الأدبي القديم وأبرزهم واوضحهم رؤية واقربهم إلى المدرسة النقدية الواضحة المعالم فحازم القرطاجين ولد 608هـ الذي جمع بين الفقه و الأدب واللغة والنحو وبين نتاجات الفلسفة الجديدة والمنطق.و لأنه خبر الفلسفة والمنطق فإن أول ما بدأ به هو تحديد مفهوم للشعر جمع فيه بكل دقة

مميزات هذا الفن فقال:" الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره ما قصد تكريهه' لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليق الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب ، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها"[34]

فهو وإن ركز اهتمامه على الأداء وحسنه، من حسن تخييل و حسن تأليف لا يهمل الجوانب الأخلاقية المتمثلة في أثر ذلك النص الشعري الجميل في النفوس إذ بـه تحب النفس أشياء لم تكن تلتفت إليها وبه تكره أخرى لم تنكشف معايبها إلا بأنواره الخفية فتطلب الحس وتقبل عليه وتفر من القبيح وتنفر منه ...

وقد قاده حديثه عن التخييل إلى التطرق لبعض الآراء والتصورات الخاطئة التي ترى التخييل وهما وخيالا لتصل إلى نتيجة مفادها أن الشعر كاذب في جملته ظنا منهم أن التخييل ينافي اليقين . ومن وعيه بمهمة الشعر حاول توضيح الأمر، مؤكدا أن الأقاويل الصادقة في الشعر هي الأصل و يقول: "إن قول من قال إن مقدمات الشعر لا تكون إلا كاذبة كاذب"[35].

وإذا كان الصدق في الشعر هو الأصل فإن الكذب عنده لا يلجأ إليه إلا لضرورة ، لذلك وجدناه يقيد استعماله الكذب بضوابط صارمة توضح حدوده وترسم المعالم التي يجب عدم تخطيها، منطلقا في ذلك من ثقافته الدينية والفلسفية في آن ، ومفاد نظريته "أن الكذب في رأيه منه ما يعلم من ذات القول دون الحاجة إلى قرينة من خارج القول المتناقض مثلا، ومنه ما لا يعلم كذبه من ذات القول ...وقد لا يمكن التوصل إلى معرفة كذبه من خارج القول وذلك كالاختلاق الإمكاني (أي أن يدعي شاعر شيئا لا وجود له ولكنه ممكن الوجود) وإلى ما يعلم أنه كذب من خارج القول بالضرورة كالاختلاق الإمتناعي "كان يختلق الشاعر ما يمتنع وجوده..."[36]

والكذب المستساغ عنده هو "الإختلاق الإمكاني" الذي يقول فيه :

" فالكذب الإختلاقي في أغراض الشعر لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له ، إذ لا استدلال على كونه كذبا من جهة القول و لا العقل ، فلم يبق إلا أن يعاب من جهة الدين ، وقد رفع الحرج عن مثل هذا الكذب أيضا في الدين ، فإن الرسول ρ كان ينشد النسيب أمام المدح فيصغي له ويثيب عليه"[37]

فالاختلاق الإمكاني في الأغراض جائز كالمقدمات الغزلية وكذلك الأمر في جهات الشعر "موضوعاته" فمن أكد مثلا شعورا خاصا نحو أمر ما من غير أن يكون ذلك صحيحا لا يكون الأمر معيبا ما دام يحتمل إمكانية الوجود الفعلي.

أما النوع الثاني "الإختلاق الإمتناعي والإستحالي" فغير مستساغ و لا مستحسن "ليس يقع للعرب في جهة من جهات الشعر أصلا"[38]، وقد استشهد لهذا الضرب بما عرفه الشعر اليوناني من أساطير لم تقع و لاتحتمل الوقوع مثل صراع الآلهة ومغامراتها... فهو انطلاقا من وعيه الديني وعقيدته يستبعد وقوع مثل هذه المعاني في الشعر العربي وينفيها عنه.

و هو لذلك يسعى جاهدا إلى التوكيد على أن الأقاويل الشعرية، يمكن أن تبنى على الصدق وذلك هو الأصل فيها، و لا يستحسن الإنتقال منه إلى الكذب إلا لضرورة ملحة.

وعلى الشاعر ألا يخرج عن حدود المعقول فيصور أشياء يمتنع وجودها أو يستحيل، أو يقوم بقلب حقائق مشهورة ومشاهدة.

وقد تصدى حازم القرطجاني للهجمة الشرسة التي شنها البعض على الشعر وحاولوا التشكيك في جدواه لأنه مرادف في نظرهم للكذب، وما بني على الكذب لا يمكن أن يكون له شأن في مجتمع يرى الكذب رذيلة، لأن الغاية النبيلة لا تدرك إلا بوسيلة نبيلة، فصحح حازم ذلك الإعتقاد السائد في أن الشعر كله مبني على الكذب وأكد أن التخييل لا يناقض الصدق، محاولا صرف اهتمام الشعراء إلى الأهم من ذلك

ألا وهو الإبداع الشعري الذي تأتي الغرابة من مقدمة أدواته " وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب، خليا من الغرابة"[39]

وربما كانت طائفة الشعراء المتكسبين المتزلفين للحكام المزيفين للحقائق سببا في رواج تلك المواقف اليائسة من جدوى الشعر، فانسحبت جناية الوضيع على الشريف -- كما قال حازم - .

وما نفور الناس من الشعر في عصره إلا لذلك الدور السلبي الذي كان لبعض شعرائه، لذلك رأيناه في تحديده لمفهوم الشعر يركز على وظيفته " يحبب إلى النفس المحامد ويدعوها إلى طلبها ويكره إليها المقابح وينفرها منها" لأن خواص الشعر وما ينبني عليه جوهره تجعل النفس تنساق إليه وتستجيب له لأنه يخاطب الشعور، ومقصد الشعر عند حازم هو " إلهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح أو جلالة أو خسة".[40]

فالتحسين أو التقبيح الذي يفضي إليه التخييل في العملية الإبداعية في الشعر من شأنه أن يدفع الملتقى إلى اتخاذ موقف سلوكي محدد.

إن للشعر عنده وظيفته الأخلاقية التي يؤيدها والتي يحددها في: " استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك، وقبضها عما لا يراد بما يخيل لها فيه من خير أو شر"[41] وقد حدد الطرق التي بواسطتها يتم التحسين أو التقبيح في أربعة مواطن:

إما أن يتم التحسين والتقبيح من جهة الدين بذكر الثواب على فعله و اعتقاده أو العقاب على تركه واعتقاده نقيضه.

أو يتم من جهة العقل وما يجب أن تؤثره النفس من حيث هي عاقلة مدركة متحلية بالفضائل، تاركة للرذائل.

3-وإما أن يتم من جهة المروءات والكرم بإيثار الذكر الحسن والأنفقة من الذكر القبيح.

4-وإما أن يتم من جهة الحظ العاجل والشهرة وما هو معروف من حرص النفس واشتهائها المنفعة والنعمة، وما تنفر منه من المضرة وسوء الحال[42].

وفي كل هذه الطرق يتضح الاعتبار الأخلاقي الذي أكده حازم دون أن يغفل الاعتبارات الجمالية الفنية، لأن نبل الغاية لا يشفع للشاعر إهمال نبل الوسيلة، فالغاية السامية تتطلب الأداة السامية.

ولأهمية هذا الفن وخطر رسالته هاجم حازم القرطاجني شعراء عصره الذين انحدروا به عن تلك الغاية، " ران على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مئتي سنة.."[43].

وقد ساهم في صناعة هذا المشهد الثقافي المتردي فئة من النقاد اعتبرت الشعر مدعاة لسوء الادب وفساد المنقلب لأنه في اعتقادهم يحمل الشاعر على الغلو في الدين حتى يؤول إلى فساد اليقين ويحمله على الكذب، ويقول في هؤلاء في لهجة قوية حازمة قاسية: " كثير من أنذال العالم – وما أكثرهم – يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة، وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة"[44]

من كل ما تقدم ننتهي إلى إدراك أهمية الشعر وخطره في آن، وحاجة المجتمع إليه في إرساء القيم الحميدة وطرح ما عداها من مفاسد، وقد أقر جل الذين أوردنا مواقفهم بضرورة نبل الأداة حتى تتناسب ونبل الغاية التي ترمي إليها وهو ما يعرف بالجودة الفنية ذلك أن جمال المعنى وجلاله وشرفه لا يغني عن جلال اللفظ وجماله وشرفه، كما اتفقوا على مصطلحات معينة ذات صلة مباشرة بالجانب الأخلاقي المرتبط بالإسلام، المنطلق من تعاليمه مثل (الحسن والقبح، ما وافق الحق، الطيب والخبيث، تزيين النفس، وتأديب الغير، المعنى الكريم واللفظ الكريم: المعنى الشريف واللفظ الشريف، الصدق معيار للحسن والكذب والخطأ معيار للقبح، المعنى الحقير الفاسد، الدنيء

الساقط، الفظ الهجين المستكره، اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم، شين الهجاء) وهي جميعا مصطلحات مستمدة من القاموس العربي الإسلامي الذي يضع القيم والمثل في مقدمة اهتماماته.

ولعل الوحيد الذي تفرد باستعمال مصطلحات علمية جديدة هو حازم القرطجاني الفيلسوف اللغوي الفقيه الذي أفاد من معرفته بالمنطق وجاء بمصطلحات مثل الاختلاق الإمكاني " المقابل للكذب المرفوض، دون أن يخرج عن البعد الأخلاقي للشعر.

ولعل أبرز قضية يمكن استخلاصها والتركيز عليها من كل تلك التوجيهات والتعريفات والمواقف هي ما يمكن تسميته "بوظيفة الشعر" أو أثره الخطير، إنه سلاح ذو حدين، لذلك رأيناهم يجمعون على رفض ما لا يخدم المجتمع، بل يعود عليه في كل الأحوال بالمفاسد بدءا بالغزل الفاحش والهجاء المقذع، والمديح الكاذب ... ليتركوا بعد ذلك مجال الإبداع للشعراء يرتفعون بالناس أنى استطاعوا، بهم يسخوا البخيل ويبر العاق ويكظم الغاضب غيضه، ويقدم الجبان والخامل، و نعمت الأداة هي و كفى الشعراء الذين يحملون هدا اللواءالرسالية البناء فخرا.

الهوامش:

[1]-طه أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب- دار الحكمة- بيروت- ص 11 .

[2]-ابن رشيق القيرواني -العمدة . دار المعرفة - بيروت- ط1 . 1408-1988 -ج 1/ص85

[3]-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[4]-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[5]-عبد العزيز عتيق – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار النهضة – 1986 – ص 50.

[6]-ابن رشيق – العمدة ج1/ص 88

[7]- المرجع نفسه – 209/1.

[8]- الأصفهاني -كتاب الأغاني- دار الثقافة – بيروت – ط 6 – 1983 – ج 22 . ص 330.

[9]- ابن قتيبة – الشعر والشعراء ص 207.

[10]- المصدر نفسه ص

[11]-ابن عبد ربه – العقد الفريد – ج 5 ص 274

[12]-المصدر نفسه - ج 1 ص 271.

[13]-الأصفهاني – كتاب الأغاني – ج 1 – ص 113 – 114، للتوسع أنظر:ابن أبي عتيق ناقد الحجار (أخباره ونقده) عبد العزيز عتيق – جامعة بيروت العربية – 1972.

[14]-الأصفهاني – الأغاني – ج1 ص 84.

[15]-أبو نواس – الديوان – دار الكتاب العربي – لبنان – ط1 -2003- ص 38.

[16]-أنظر على سبيل المثال: طبقات فحول الشعراء للجمحي وكيف صنفهم على أساس فني محض فجعل امرؤ القيس أولهم. ومثله نقد الشعر لقدامة بن جعفر و البديع لإبن المعتز و الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني....

[17]-نجوى صابر – النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته- دار العلوم العربي – لبنان – ط1 – 1990-ص43.

[18]-الجاحظ – البيان والتبيين – ج1 ص:75-76.

[19]-المصدر نفسه - ج1 ص:36-38.

[20]-الجاحظ:رسائل الجاحظ 160/2-161

[21]-المصدر نفسه-ج1 ص : 36-38.

[22]-الجاحظ البيان والتبيين ج1-ص:48.

[23]-ابن قتيبة – الشعر والشعراء – دار احياء العلوم – بيروت – ط5 – 1994 ص 24-25.

[24]-إبن طباطبا – عيار الشعر – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1982 ص 20

[25]-المصدر نفسه 18- 9.

[26]-الحصري القيرواني – جمع الجواهر في الملح النوادر – تحقيق علي البجاوي ط البابي الحلبي 1953 ص 40

[27] -نجوى صابر – النقد الأخلاقي – ص 31.

[28]-المرجع نفسه .ص 33

[29]-ابن بسام – الذخيرة 1/1 ص 544.

[30]-المصدر نفسه 2/1 ص 883.

[31]-المصدر نفسه 1/1 ص 432.

[32]-المصدر نفسه 1/1 ص 544 – 546.

[33]-المصدر نفسه ½ ص 378.

[34]- حازم القرطاجني-منهاج البلغاء وسراج الدباء تحقيق الحبيب بن الخوجة- -دار الكتب الشرقية تونس 1966 ص 83.

[35]- المصدر نفسه و الصفحة نفسها .

[36]-سعد مصلوح- حازم القرطاجين ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر-174.

[37]-حازم القرطاجين – المنهاج-78-79

[38]-حازم القرطاجين – المنهاج-68

[39]-المرجع السابق 72.

[40]-المرجع نفسه 85.

[41]-مرجع نفسه 337.

[42]-المصدر نفسه 106-107.

[43]-المصدر نفسه 10.

[44]-المصدر نفسه 124.